مخاوف الموت

وخوفُ الردى آوى الى الكهف اهلهُ وعلَّم توحاً وابنهُ عمل السفنِ
وما استعذبتهُ نفس موسى وآدمٍ وقد وُعدا من بعدهِ جنّتي عدنِ

ما هو الغرض الاعظم من العلوم والفنون والمخترعات والمكتشفات. لماذا تُبنى البيوت وتخاط الثياب وتنشأ السفن ويدرس الطب وتصنع الادوية . لحفظ الحياة واطالة العمر وهٰذا هو الغرض الأبعد من انشاء الاساطيل وتعبية الجنود بل من كل سعي وكد وتعب ونصب . فان الناس كلهم يعلمون انهم ماتون ويسعون سعياً حثيثاً في دفع كاس الموت . ولكن اذا فكّر الانسان في زوال الدنيا ورسخ في ذهنهِ ان المنايا لا تطيش سهامها وهي لهُ بالمرصاد نهاراً وليلاً وتردّد في نفسهِ قول القائل

لما رأيت مواردًا للموت ليس لها مصادرْ
ورأيت قومي نحوها تمضي الاصاغر والاكابرْ
ايقنتُ اني لا محالة حيث صار القوم صائرْ

فقد يزهد في الدنيا وينقطع عن السعي ويردّد قول من قال

انما الدنيا فناء ليس للدنيا ثبوتْ
انما الدنيا كبيتٍ نسجهُ من عنكبوتْ
ولقد يكفيك منها ايها الجاهل قوتْ
ولعمري عن قريبٍ كل من فيها يموتْ

ويهجر الاصدقاء والخلاّن ويرغب عن إخلاف النسل وتشييد المصانع كيف لا وهو يسمع غراب البين ينعب فوق رأسهِ وينادي

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكمُ يصير الى التراب

ولكن كم من الناس يبطل السعي خوفاً من الردى ويترك الدنيا في طلب الاخرى . لا ترى واحداً يفعل ذلك حتى ترى الوفا يكدحون نهاراً وليلاً يحتشدون الاموال ويشيدون المباني كأنهم امنوا اللحود وضمنوا الخلود . فعلى مَ يتغاضى الاكثرون عن الموت وهو اقرب اليهم من حبل الوريد وكيف ينسونهُ ظاهراً وهم يرون ما يذكرهم بهِ كل ساعة

لو اقتصر العلم في هٰذا الموضوع على مثل ما تقدَّم لاكتفينا باقوال الشعراء وتركنا المسألة كما تناولناها لغزاً مغمضاً يحار فيهِ القارىء . ولكن اتفاق الجمهور على التغاضي عن الموت

كأن هذا التغاضي هو التيأس واهتمام ثلة قليلة منهم بهِ كأن هذا الاهتمام هو الشذوذ يدلان على ان الشذوذ حالة مرضية او غير عادية وان التغاضي هو الحالة الصحية او العادية . وهذا ما اردنا بيانهُ في هذه المقالة وايضاحاً لذلك نقول

اتفق منذ ثلاث سنوات ان شرب كاتب هذه السطور ماء غير صحيح جرعةً واحدةً ولكنها كانت مشوبة بميكروب الحمّى الخبيثة المعروفة بالتيفويد فدخل هذا الميكروب جسمهُ وهو غير متأهب لهُ فعاث فيهِ وتغلَّب عليهِ . ولم تتضح حقيقة الحمّى عندي اول الامر فظنَّها الاطباء برداء بسيطةً وتهاونوا بها ما هو فقال في نفسهِ لقد تغلَّب ميكروب هذه الحمى عليَّ وجسمي سليم فكيف لو جاء في ميكروب اشدُّ منهُ وطأةً وجسمي سقيم . ومَن يقبض من جراثيم الامراض وهي منتشرة في الهواء والماء والطعام والشراب وكلٌّ طيب من هؤلاء الاطباء يأتيني وفي يديهِ وثيابهِ الوفٌ منها . فاشتدَّت عليهِ المخاوف وساورتهُ الهموم وايقن بدنو الاجل . ثم التفت الى زوجهِ واولادهِ واقربائهِ واصدقائهِ ومطابعهِ واماكنهِ فعزَّ عليهِ فراق الحياة وختنتهُ العبرات وبقي ياماً لا يرى من الموت مناصاً ولا يحسب لكل اساليب العلاج سوى فائدة وقتيَّة تبعد الاجل اياماً او اسابيع ولكنها لا تردُّهُ

ثم تمكن منهُ الداء وانتكس مرتين واشتدَّ عليهِ الهزال ولم يعد دمهُ كافياً لتغذية دماغهِ ولا قلبهُ قادراً على دفع الدم اليهِ . وصار البحران يتولاَّهُ كلما انهض رأسهُ عن الوسادة . ولكن اين كانت مخاوف الموت حينئذٍ . زالت كأنها لم تكن وعاد مثل سائر ابناء الدنيا الذين لا يهتمون بالموت ولا يلتفتون اليهِ بل لا يخطر لهم ببال . وأصيب بألم شديد ذات يوم في امعائهِ فخطر لهُ حينئذٍ انهُ غير ناجٍ منهُ ولكنهُ لم يجزع بل لم يكن ذلك الخاطر على شيء من الوضوح فزال حالما خفَّ الالم . ولم يدرك شدَّة الخطر الذي كان فيهِ الاَّ بعد ان شفي تماماً ولا يزال حتى الساعة يرتعش من التفكر فيهِ

ولا بدَّ من ان كثيرين من القراء اختبروا ما اخبرناهُ إما في انفسهم او في اصدقائهم . رأوا ان المرء تجرح يدهُ فيخشى من الموت ويصاب بالسل وهو يعلم ان لا شفاء لهُ ويصل الى الدرجة الاخيرة منهُ وهو يرجو الشفاء وطول الحياة ويشرح ما ينوي عملهُ من الاعمال . رأينا مرةً شابًّا سوريًّا درس علم الطب فبرع فيهِ ثم أُصيب بالسل وتدرَّج الداء في جسمهِ الى ان بلغ الدرجة الاخيرة وهو مهتمٌّ بدرس اللغة اللاتينيَّة لكي يترجم اشعار فرجيل ولم نجالسهُ مرةً الاَّ شرح لنا بعض ما هو عازم عليهِ من التأليف والتحرير كأن الموت لا يخطر لهُ ببال

ولا نطيل الكلام في ذكر الامثلة التي من هذا القبيل لانها مألوفة بل نتقدَّم الى

التحليل العلمي الذي نُظهر به اسباب ما تقدّم من تقاضي الناس عن الموت هو اخر معلوم عليهم وخوفهم منهُ والخاطر قليلة ثم عودهم الى التقاضي عنهُ حين اشتدادهِ

لا يخفى ان المؤثرات الخارجيّة تؤثر في المشاعر فينقل تأثيرها إلى مراكز الحس في النفس تشعر بها. لكن شعور النفس لا يقتصر على المؤثرات الخارجيّة بل هي تشعر ايضاً بالمؤثرات الداخليّة . فاذا نظرتُ إلى شجرة وكان النور منعكساً عنها الىَّ رسم صورتها على عيني فاثرت هذه الصورة في مركز الحس الذي يشعر بصور المرئيات فشعرتُ بوجودها امامي . وقد يحدث هذا الشعور في نفسي ولا شجرة امامي ولا صورة شجرة اذا اغمضتُ عينيَّ وفكّرت في صورة قديمة في ذهني او تجرّدتُ صورة من الصور الكثيرة التي فيهِ . ويحدث ايضاً اذا طرأ طارئٌ على مركز الشعور بالمرئيات فجعلهُ يتأثر كما يتأثر من وقوع الصورة على العين

ولا يخفى ايضاً اننا اذا رأينا شيئاً مرة واحدة او مرارًا قليلة شعرنا بهِ شعورًا واضحاً . ثم اذا رأيناهُ مرارًا كثيرة بعد ذلك لم نعُد نشعر بهِ شعورًا واضحاً كما كنا نشعر قبلاً . فالذي يرى رجلاً مشهورًا اول مرة ويخاطبهُ ساعةً من الزمان يصفهُ لكَ وصفاً واضحاً ولكنهُ لو اراد وصف اخيهِ الذي يراهُ كل يوم او وصف نفسهِ وهو يرى وجههُ في المرآة مرارًا في اليوم لتعذّر عليهِ ذلك . وقد شاهدنا اناساً يرون صورة فوتوغرافية لشخص نظروهُ مرةً في حياتهم فيعرفون حالاً انها صورتهُ . ويرون صورة احد اخوتهم او اولادهم فتخفى عليهم في اول الامر وما ذاك الاَّ لأن الشعور اذا كان مفردًا او كان جديدًا احسَّت بهِ النفس كما هو واما اذا تكرّر على وجوه كثيرة التفتهُ النفس فلم تعُد تحسّ بهِ او اختلف موقع تأثيرهِ فيها فلم يعد محدودًا كما اذا التفتَ التفاتاً دقيقاً في باب مُغلَق ودخل منهُ النور عن شجرة قائمة امام الباب فان النور يرسم لها صورة واضحة على حائط الغرفة المقابل للباب . واما اذا وسّعتَ الثقب فدخلتْ منهُ اشعّة كثيرة من النور ورسمتْ على الحائط صورًا كثيرة مختلفة الوضع اخفى بعضها بعضاً فلم يعد شيءٌ منها واضحاً

وقس على ذلك الشعور بالملموسات والمشمومات والمسموعات والمذوقات فان التكرار والاعتياد يضعفان كل انواعهِ وامثلة ذلك كثيرة لا تخفى على المتأمل . ثم ان اعضاء الانسان الداخلية تتحرّك على الدوام وهو لا يشعر بها ما دامت حركاتها منتظمة مألوفة ولكن اذا اختلّت حركاتها او تحرّكت على صورة غير مألوفة شعرت النفس بها . وكذلك الصور الذهنيّة والتأثيرات العقليّة اذا كانت حديثة شعرت النفس بها جيدًا واما اذا تكرّرت على نسق واحد ضعف تأثيرها رويدًا رويدًا الى ان يزول . اعتبر ذلك في خوف الناس من الكوليرا

او من الحرب فعند اول ظهور الكوليرا في بلاد تهلع قلوب سكانها ويتصور كل احد منهم ان الموت بها ملاقيه لا محالة ثم اذا انتشرت في البلاد وكثر ذكرها في الآذان قلّ الخوف منها رويداً رويداً حتى يصير المرء يدفن اخاه ولا يجزع . والذين يذهبون الى مواقع القتال اول مرة يخافون خوفاً شديداً ثم اذا دخلوا المعارك ورأوا القتلى عن يمينهم ويسارهم قلّ خوفهم كثيراً او زال تماماً

هذا هو الاصل الاول لاشتداد مخاوف الموت وضعفها اي ان النفس ترتاع من التفكر بالموت حالما يعرض لها ثم اذا تكرّر عليها الفتهُ فقلّ شعورها به . وبهذا الاصل يُعلَّل خوف المرضى من الموت في الامراض الحادة وقلة خوفهم منهُ في الامراض المزمنة

ثم ان المؤثرات لا تؤثر في النفس اذا كانت مشغولة بمؤثرات اخرى اشد منها . فاذا كنتَ تكلم رجلاً في موضوع هامّ فقد لا ترى ما يمرّ على عينيك من المناظر حينئذٍ ولا تسمع ما يطرق اذنيك من الاصوات . ومثل ذلك اذا كنت تفكّر في موضوع يشغل بالك فانك لا تفطن لمؤثرات كثيرة تعرض لك الاّ اذا اشتدّت بغتة خوّلت انتباهك اليها . وكلما زاد الانسان قوّة ونشاطاً واشتغالاً قلّ انتباههُ الى العوارض الطارئة عليهِ ولذلك يستخفُّ الشاب القوي اليفعة بالموت ويركب المخاطر غير هيّاب واما الشيخ الضعيف البنية فلا يطيق ذكر الموت بل يبذل جهدهُ في التفتيش عن الوسائل التي تطيل الحياة ولقد صدق من قال

واذا الشيخ قال اف فما مَلَّ الحياة ولكن الضعف ملاّ

وخلاصة ما تقدم ان الناس يكرهون الموت ويخافونهُ ويودون الحياة ويرغبون فيها بحسب مقتضى طبعهم ومدلول فطرتهم وذلك يدعوهم جميعاً الى تجنب اسباب الموت والاستمساك بعرى الحياة لكن الخوف من الموت يقلُّ كثيراً اذا اشتغل الانسان عنهُ بمهام الدنيا او اذا تكرّر على النفس حتى الفتهُ

وقد تقل مخاوف الموت او تزول تماماً اذا فاجأت النفس فشلّت مراكز الشعور كما حدث للرحالة لفنستون وقد وثب عليهِ الاسد والقاهُ صريعاً وكاد يقتلهُ وكما حدث لاحد العلماء وقد سقط عن شاهق واندفع من صخر الى صخر فانهُ كان يفكّر حينئذٍ في عدد الصخور التي تدفعهُ قبل ان يصل الى قاع الوادي . وهذا شأن من يتخدّر بالكلوروفورم فان اعصابهُ تتخدّر حتى لا يعود يشعر بالم ولا بخوف من الموت . وكذلك من يستقتل لغرض ديني او نحو كالرامي الهنود اللواتي يشعلن النار بقدم راسخة ويطرحن انفسهنّ في النار متهلّلات لانهنّ يحسبن ذلك امراً دينياً واجباً للاتحاق بازواجهنّ في عالم الابرار